صورة فلحية

الدكتور احمد النقيب

بقلم نفر لا شكري

لا يزال بيننا وبين الطبيعة مناجاة دائمة تحدثنا بمقاييس مقنوسة نحسها في كل شيء . فان الزهرة النضرة ، أو السنبلة التي يقصفها الريح في الحقل ، أو العنقود الذي تطمح اليه أنظارنا متهدلا بالبستان انما هو دليل واضح تبديه الطبيعة اشارة الى خصبها ، وانها تعطي الانسان دائماً ما تنطوي عليه من ثمار وزهر

وليس أبلغ من هذا الشعور تناجينا به طبيعة مصر الخصبة التي ما زالت تحتفظ بمقاييسها القديمة بينها وبين أهلها وزروعها وشمسها وسائر ضروب حياتها . فان التمرة التي تنبتها تربة خصبة لا تكاد تختلف من الانسان المثقف الذي يخرجه نوع سام من التهذيب . ولعل سرّ الطبيعة نفسها في ذلك التهذيب لا يفترق عن أثرها في النبت . وهذا لعمري ما نسميه بالعلاقة بين الانسان ووطنه

***

هذا رجل من رجال مصر ، في حدود الأربعين ، ذو قامة عالية ، ربعة الى الطول ، خطي اللون ، ساكن النظرات ، حاضر البديهة ، موفور القوة ، متواضع السمت ، يغلب عليه الحياء ، وتبدو عليه مع ذلك مخائل الثقة العظيمة بالنفس ، والرغبة العميقة في ان يعمل دون أن يتكلم

هذا الدكتور احمد النقيب ، الطبيب الجرّاح الدائم الصيت ، هذا الشاب المصري الطموح ، الشجاع ، الجريء ، قد ضرب لأمثال مصر وشبابها المتوثب أحسن الامثال كيف يستحيل الامل الكامن عملاً بارزاً ، ونصراً مبيناً . وأقام الدليل الحسي على ان استعداد شباب مصر المأمول لجسام الاعمال التي تحتاج الى الجرأة والاعتداد بالنفس ، والاعتماد على الله وعلى الهمة العالية الشماء ، لا يقلّ مثقال ذرة عن استعداد أية أمة غربية أو شرقية ، أو عن استعداد أي شباب في أي بلد عظيم

هذا الدكتور النقيب قد جاهد في الطليعة مع النخبة المستنيرة من رجال الموآساة لتشييد صرح مصري عظيم يكون بينة على النهضة القومية في هذه البلاد ودليلها ، وآية المبادىء الوطنية التي تجاهد في سبيلها بارزة في أحسن مظاهرها وأجل صورها ، والنهضة الاجتماعية في بعض معالمها الواضحة للابصار المتحدثة بلغة القومية ومنطق الاستقلال

وغداً يجوس المصريون خلال فكرة قومية استوت قائمة على أحسن بقعة مصرية ، في رأسها

يحقق العلم المصري مدللاً على قوة باعثها ، وصدق احساسها ، وسلامة دوافعها . وتمشي في ساحة مستشفى المواساة الفخم جموع المصريين يشهدون الوطن على مدى وطنيتهم ، وقوة ايمانهم بالفكرة القومية التي تتمثل بهم ، وبلغ عرفانهم لمساعيها البارز فيهم . غداً يتفقد المصريون ردهات هذا المستشفى ، ويشهدون أجزاءه وجهاته ، فيختبطون بوجودهم على قطعة مستقلة من مصر المطالبة باستقلالها ، فتجتمع بهم وبالبناة الصالحين الذين أنشأوها ، الوطنية المصرية بسائر قواتها ، وتواجه العقيدة القومية اثباتها ، وتزدحم في مكان واحد معانيها وآياتها ، وتتجلى مصر في أفخم عناوينها وشاراتها ، ويبرز الايمان بالكفاءة المصرية شواهده قائمة ماثلة . ومنشآته في البر متحدثة عنه بلغة العزمات النافذة ، والهمم المنجزة ، والاخلاص المكين

وغداً يذكر الدكتور النقيب اخوانه من شباب مصر بما تحتويه فطرتهم من صفات الرجولة ، ومناقب الفتوة التي تنازعها الآمال ، فاذا بالعزمة الصادقة تسمو بتلك الآمال من عالم الأماني والاحلام الى عالم الحقائق المجيدة ، يسجلها الوطن للعاملين من أبنائه في كتاب العزة الوطنية التي أودعها القدر بين ايدي الشباب العاملين امانة مقدسة

لقد وضع الدكتور النقيب ورجال المواساة النواة الطيبة الصالحة ، وبقي امام الشعب بأكمله ان يستكمل هذه المنابت ، ويحمي هذه الحقول ، فان كل نواة تقتضي تعهداً ، وكل مستنبت يطلب مزيداً من الجهود ، واذا كان الدكتور النقيب والعاملون من رجال المواساة قد اقاموا هذا الصرح الانساني الفخم بجهود الجبارة ، وهمة البطولة ، واخلاص الوطنية ، فقد وضعوا به القاعدة ، واصبح الواجب القومي مقتضياً البناء فوقه ، والمزيد عليه ، والتوسع في اجنحته وطبقاته . وما دام أخطر دور التعمير والانشاء قد تم ، فلتمض الامة احياء وقادرين ، وزعماء وهداة ومجيدين ، في بناية الباقي ، والوفاء بما يريد الوطن . ويوحيه استقلاله ، ويقتضيه مكانه بين الشعوب

***

وهنا يحق لنا ان نشرح بايجاز حياة الرجل الذي يعدُّ رمزاً عالياً للفكرة التي اوحت بانشاء هذا المستشفى

ولد الدكتور احمد النقيب بمدينة الزقازيق في ١٠ يناير سنة ١٨٩٥ وتلقى علومه الاولية بمدرستها الابتدائية ثم انتقل الى القاهرة وحصل على شهادة البكالوريا من المدرسة التوفيقية ثم انتظم في مدرسة الطب ونال شهادتها في يناير سنة ١٩١٩ وتولى بعد ذلك تدريس التشريح العملي بها الى ان عين طبيباً بمستشفى قصر العيني . وفي غضون ذلك ظهرت آيات براعته وخبرته ، وافضت به كفاءته الى اداء مهمته في المستشفيات العامة وفي سنة ١٩٢٥ عين جراحاً لمستشفى الاسكندرية . وكانت رغبته القوية في خدمة الطب تسوقه دائماً الى الاختبار والترقي فانه في سنة ١٩٣١ تخصص في جراحة المجاري البولية على الاستاذ العالمي السر ظومسون دوكر والمستر ايفردج بانجلترا ولم ينقض عامان حتى قصد

الى برلين في بعثة جديدة للغرض نفسه فتخصص على الاستاذ « ليشتنبرج » من اشهر اطباء جراحة المجاري البولية في المانيا

ولم ين الدكتور النقيب في غضون هذه المدة عن البحث واختبار حالات معاهد الطب في عواصم اوربا وزيارة المستشفيات الكبيرة حيث خطرت له فكرة مستشفى المواساة على اثر مشاهدة مستشفى « مارتن لوثر » في برلين ، وكان قبل ذلك قد بحث هذه الفكرة عن طريق اتصاله المباشر بالطبقات الاجتماعية وهو ذلك الاتصال الجليل الذي يتوصل اليه الطبيب لعلاقة مهنته المباشرة بادواء الناس . ولانه اكفأ من سواه في اقتراح الوسائل التي تخفف آلام الجماهير . وكان يعلم ان الطبقات الراقية مع اعترافها في الغالب بخبرة الاطباء الوطنيين تميل الى الالتجاء نحو المستشفيات الاوربية على اعتقاد انها اكمل واعظم ضماناً ، ويعلم من جهة اخرى حال المستشفيات الوطنية وحدود تراجعها الحزن عن الخطوات التي وصل اليها الطب الحديث باعتباره قاعدة رئيسية في الحضارة ، وان الامم التي وصلت الى الترقي الحقيقي انما وصلت عن طريق القوة التي يوفرها الطب . ونعتقد ان الترقي الاوربي مدين للطب باشياء كثيرة جميعها ذات اثر ظاهر في نشاط الحياة الغربية . ولما عرضت هذه الفكرة وجهت النظر بادىء ذي بدء الى تقدم العصر وجهود الوسائل الصحية وبخاصة للمستشفيات الوطنية ، وكان من الطبيعي ان يدل ذلك على الفارق بين طموح مصر الجديدة الى الترقي وتراجع قاعدة تعد اعظم قواعد الحضارة وهي الطب . وفي الحقيقة ان الكثير من الوطنيين اذا فكر في الالتجاء الى احد المستشفيات الوطنية يرى انه في حاجة الى ضمان كاف يقنعه بتحقيق الغاية التي يرجوها . ولعل ذلك يرجع الى ضعف الجهود التي ينبغي ان تبذل لترقية المستشفيات المنسوبة الى الوطنيين ، وقد عرض الدكتور النقيب فكرته الشريفة على رجال المواساة فقوبلت بالتأييد . والظاهر انها رغبة كمينة في نفوس الذين يميلون الى خير مصر وسعادتها . واقترن هذا التأييد باستعداد صادق لانشاء مستشفى وطني يضارع سائر المستشفيات الاوربية وان تكتمل فيه الوسائل ، وان يكون نموذجاً صحيحاً يرمز على السوام الى جهود الوطنيين

***

ومن الممكن ادراك هذه الجهود من مجرد النظر الى البناء الفخم الذي تحقق به المشروع والذي يقال انه استنفد ما يقرب من ربع مليون جنيه . وهو وحده كاف للدلالة على ان الفكرة التي تحققت قد خيبت ظنون الذين كانوا ينسبون الى جمعية المواساة التعلق بالنظريات والاحلام . ولا شك في ان اكمال هذا المشروع سيظل رمزاً للخطوات الواسعة التي وصلت اليها الوسائل الصحية في مصر بل في سائر الشرق العربي فان الجهود التي بذلت تدل على الثقة في ان المستشفى سيكون سورة تجاوز باستكمالها وتخامها ما بلغه العصر من الرقي . ومن الطبيعي ان هذا الانشاء الصحي سيظل يحض الدوريات المصرية على الاعتراف بالجميل للطبيب صاحب الفكرة الذي استحث جماعة المواساة على سد الفراغ الحادث من تأخير المستشفيات الوطنية ونقص وسائلها ومباشرة العمل على

ان لا يكون ثمة ميزة تجعل الوسائل الصحية في عاصمة كبيرة مثل الاسكندرية تتخلف عند الحاجة عن تحقيق آمال جميع الطبقات

وبعد ، فلعل الظاهرة البارزة في حياة الدكتور النقيب لا تُحَدُّ بشغفه بالفكرات الجيدة التي تولي صاحبها خلوداً حقيقيًّا ، بل ان هذه الظاهرة تشمل اشياء اخرى ، بل ترجع الى اول عهده بصناعته عندما كان طبيباً بمستشفى قصر العيني حيث برهن على مقدار ثقة الرجل الكفء بخبرته ومقدرته . فقد حدث في الهزيع الاخير من احدى الليالي ان نقل الى مستشفى قصر العيني رجل مطعون بسكين في صدره وبطنه حتى تمزقت رئته وطحاله ومعدته . وكانت حالته تنبىء بأنهُ ليس ثمة امل في انقاذه فحادث الطبيب « النوبتجي » البروفسور « دولي » الذي كان يتعين عليه وقتئذٍ اجراء العملية للمصاب فكلفه البروفسور دولي إجراءها وكان المصاب يمت بنسب الى اسرة عريقة من الاعيان واتفق ان الدكتور بدرخان كان حاضراً فأكبر ان يجري العملية طبيب آخر غير البروفسور دولي فلم يطق الطبيب النوبتجي هذا الشك في كفاءته وغضب ثم نهض لساعته وتولى بنفسه اجراء العملية الجراحية ونجح في انقاذ المصاب بعد ان كانت حالته تنذر بالخطر وكان ذلك الطبيب النوبتجي هو الدكتور احمد النقيب فنال بتصريح خاص مكافأة كبيرة على توفيقه في اول عمل جراحي برهن على براعته . ومنذ ذلك الوقت ظهرت مهارة الدكتور النقيب وذاعت شهرته وطار صيته . والدكتور النقيب يتصف بالصراحة التي تكون عادة في فطرة المشتغلين بصناعة الطب ، وتتجلى في حديثه القوة وفي منطقه بيان الرجل المثقف الواسع الاطلاع الغزير العلم . وهو الى هذا كله خطيب زلق اللسان ، فسيح العبارة ، تقترن فصاحته بحماسة وجاذبية تنم على مقدرته وقوة تأثيره

ولعل اكبر مزايا الدكتور النقيب نشاطه ، وانه رغم قيامه بمهمته في المستشفى الاميري حيث يقوم باجراء العمليات الجراحية يؤدي هذه المهمة نفسها في مستشفى خاص له في حي محرم بك بالاسكندرية ، ولا يترك الفرص التي يزيد بها في تجاربه وعلمه عن طريق انقاذ المرضى الذين يجدون فيه دائماً الطبيب البارع المتفذ

وبعد ، ففي هذا العصر الذي قوي فيه النشاط في الحياة العلمية وبخاصة الطب ، وهو نشاط يتكافأ مع الحالة التي وصلت اليها الانسانية بعد الحرب ، نستطيع ان نعد الدكتور النقيب في مصر من الرجال الذين تفخر بهم البلاد

واخيراً ما دامت مصر تؤدي مهمتها في سبيل الترقي فحسب الشباب ان يراقب دائماً المثل العليا التي تخلدها حوادث ظاهرة في تاريخ الجماعات . فاذا ذكر مستشفى المواساة باعتباره مثلاً لمجهودات صحية عظيمة فلا غرو ان هذا الفخر سيشترك فيه اسم الطبيب الذي اقترح انشاءهُ ومهد السبيل لتحقيقه . فاذا كان هذا المشروع عملاً لخير الانسانية ومواساتها فانهُ من جهة اخرى يغذي النشء بنية ظاهرة لعوده التضامن لخدمة الوطن